

قصص من سيرة شهداء المقاومة الإسلاميّة

قصة الشهيد المجاهد بلال حاطوم

بقلم: نسرين إدريس قازان

باسم رب الشهداء

خير الأصحاب...

«قلْ لي من تُرافق، أقلْ لكَ مَن أنت»، هذا ليس مثلاً يُضرب، هذه حقيقة يلمسها الإنسان في المواقف الصّعبة في حياته. الأصدقاء هم الناس الثابتون في قلوبنا، لا تغيّرهم الأيّام، ولا تبدّلهم المواقف. في ليلة عاشوراء، وقف الإمام الحسين عليه السلام بين أصحابه، وقال لهم : «هذا اللّيل قد غَشِيَكم فاتّخذوه جَملاً». كان باستطاعتهم الرّحيل، أوَليس الإمام قد طلب منهم ذلك؟! لن يلومَهم أحد، حتّى هم إذا داهمهم النّدم ذكّروا أنفسَهم بأنّ الإمام هو مَن طلب ذلك... ولكن ماذا فعلوا، أجمعوا على قول: «لنبقى بعدك؟!، ماذا تعني الحياة إن لم ننعّم فيها مع من نُحب، لنبقى بعدكَ يا حسين؟! لا طيّب الحياة بعدك...».

كان هذا الموقف على مرّ السنين عِبرة للوفاء الخالص من الأصدقاء. ولهذا كان انتقاء الأصدقاء مهمًّا جدًّا. عندما التحقَ بلال بالمقاومة الإسلاميّة، كان صغيرَ السنّ، وفي الوقت الذي كان رفاقه في الحيّ يلعبون ويتسابقون، كان يحضّر حقيبته للالتحاق بدورات عسكريّة. ربّما يستغرب البعض كيف لهذا الفتى الضّعيف البُنية أن يتحمّل التّدريبات القاسية؟ لماذا تركَ كلّ شيء وقرّر الالتحاقَ بالمقاومة؟

وكثيراً ما سألَ عليّ نفسَه عن ذلك وهو يتحدّث مع بلال الذي انتقاه صديقًا، فصار يقضي معظم أوقات فراغه معه، ولم يعرف أحدٌ سرّ هذه العلاقة الوطيدة التي جمعتهما، وحده بلال كان يعرف أنّ هذه الصّداقة ستنقذُ عليًّا من دوّامة البحثِ عن الهدف من الحياة.

لم يعُد عليّ يتأخّر عن أداء الصّلاة، فبلال صار يناديه قبل الأذان بقليل ليذهبا معًا إلى المسجد... ولم يعد يسهر مع رفاقه للّهو واللّعب، بل يقضي الوقتَ مع بلال يتحادثان في شؤون الحياة والجهاد.

ذاتَ يوم، سأله عليّ: «لماذا تركتَ المدرسةَ يا بلال؟»، ابتسم له قائلاً: «اسمعني جيّدًا يا صديقي، عليكَ أن تدرس جيّدًا وتنجح، لا تتوقّف عن متابعة دراستك، ولكن لا تنسَ أنّ هناك واجبًا عليكَ القيامُ به تجاه دينك، واجبًا تمهّد فيه لظهور صاحب الزمان، أمّا عنّي فأنا لا أريد أن أتأخّر في هذه الدّنيا».

أمسك عليّ بيد رفيقه قائلاً: «ألا تخاف؟ يقولون إنّ الحربَ مع التكفيريّين صعبة جدًّا؟ ألا تخاف؟»

لمْ يُجبهُ بلال. ولكنّ الإجابة عرفها عليّ ذات محرّم، فعندما كان يسمع في المجالس الحسينيّة **«يا ليتنا كنا معكم»**، سمع أيضًا أنّ مجموعة من المجاهدين قد حوصِرَتْ في منطقة الغوطة الشرقيّة في سوريا.

هناك كان بلال مع رفاقه المجاهدين. صمَدوا في بيتٍ محاصرٍ من جميع الجهات. الرّصاص والقذائف قطعت كلّ المنافذ. فوقفوا معًا واتّفقوا على القتال حتّى آخر طلقة رصاص.

أطلقَ التّكفيريّون على ذلك البيت لقبَ «المستعصي» لأنّه استعصى عليهم الاقتراب منه. فالقتالُ كان شرسًا، لم يترك أيّ مجاهدٍ سلاحَه إلاّ بعد استشهاده. وواحدًا تلو الآخر استشهدوا...

بقي بلال وحيدًا... الدبّابة تقتربُ منه... وصوتُ المذياع عَلا مجدّدًا يطلب منه الاستسلامَ وتسليم نفسه. نظرَ بلال إلى رفاقه... ما أجملَهم! ما أوفاهم! لقد صمدوا معًا، وكلّ واحد أخذ بيد رفيقه إلى الجنّة. لقّم سلاحه، وبنداء «يا زهراء» أطلقَ بلال آخر ما بقيَ معه من رصاص قبل أن يستشهد...

كان بلال قبل أن يذهبَ إلى الغوطة، قد كتبَ رسالة قصيرة لصديقه عليّ: «خيّي علي الواحد أد ما عاش بالنهاية بدو يموت لو كان نايم بالفرشة أو بالشهادة، كرمال هيك يا علي أنا ما بحب موت عالفرشة، لهيك اخترت الموت بالشهادة، ووصيتي إلك إنو تفوت بهيدا الخطّ الحسينيّ».

ظلّ بلال شهيدًا مفقودَ الأثر سبع سنوات، وعندما وُجِد جثمانه وجيءَ به ليُدفن في قريته، ضمّه عليّ طويلاً، أخبره أنه خلال السّنوات السّبع أنهى دراسته، والتحق بصفوف المجاهدين، وشارك في العديد من المعارك ضد التكفيريين... وشكر صديقه كثيرًا على كلّ الأشياء الجميلة التي فعلاها معًا، والأشياء الّتي تعاهدا عليها معًا...

“ خيرُ الأصحاب هم الشّهداء... انتقوا الأصدقاء الّذين يأخذون بأيديكم إلى الجنّة.





